سلسلة في ظلال السنة

الحديث الخامس عشر

منغِّصاتُ العَيْشِ والتَّخَلُّصِ مِنها

الشيخ الدكتور
سالم بن عبد الغني الرافعي

منغصات العيش والتخلص منها
الشيخ الدكتور سالم عبد الغني الرافعي

منغِّصاتُ العَيْشِ
والتَّخَلُّصِ مِنها

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة في ظلال السنّة

الحديث الخامس عشر

منغِّصاتُ العَيْشِ والتَّخَلُّصِ مِنها

الشيخ الدكتور
سالم بن عبد الغني الرافعي

جَمِيعُ الحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الأُولَىٰ

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

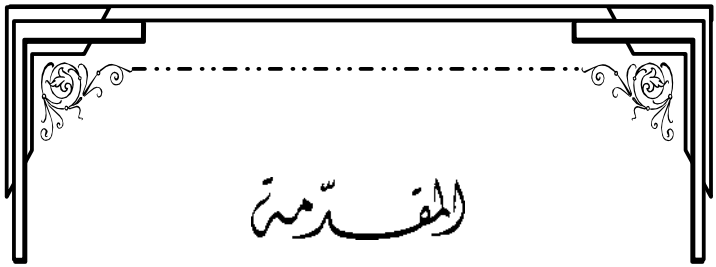

اللهم إنّا نحمدك حمدًا يوافي نِعمك، ويُكافي مَزيدك، لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك. ونصلي ونسلم على عبدك ورسولك وصفوتك من خلقك محمد بن عبد اللَّه صلوات ربي وسلامه عليه، **وبعد..**

فإن السنّة النبوية ذَخَرت بكثير من الأحكام والمواعظ والعِبر. وقد دَرَج العلماء على مرّ العصور على تأليف المصنّفات في شرح أحاديث الأحكام وغيرها من أنواع الحديث، ليسهُل على الناس الإفادة منها.

ومعلوم أن لكل عصرٍ درجتَه في فهم العلوم واستيعابها، فما كان شرحًا يفهمه أهل عصر، قد

يستعجم على من بعدهم حتى يحتاجوا إلى شرح للشرح، مع ما يستجدّ في حياة الأمة من هموم وأوضاع وتغيّرات.

لذلك حَسُن في رأيي أن يكون الشرح مناسبًا لأهل كل عصر، يراعي مستواهم العلمي واللغوي، كما يتطرق إلى مشاكلهم المستجدّة، وليس إلى مشاكل عصر سبق لم تعد ذات بال عندهم.

وقد بدأت هذه الخطوة في خُطب الجمعة، إذ بدأت أشرح فيها جملة من أحاديث النبي ﷺ، وأربطها بالواقع الذي نعيش فيه. وهذا أعظم أثرًا في النفوس من تحويل خطب الجمعة إلى نشرات أخبار سياسية، تخلو من ذكر الآيات والأحاديث، ولا تزيد في معطياتها عن أي نشرةٍ للأخبار، فتخرج بالخطبة عن موضوعها الذي شرعت لأجله، وهو وعظ الناس وتعليمهم.

ثم رأيت نشر هذه الخُطب في رسائل صغيرة عسى أن يعمّ نفعها، وسمّيتها «**في ظلال السنّة**».

واللَّهَ أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم.

وكتبه
الشيخ الدكتور
سالم بن عبد الغني الرافعي

في طرابلس ـ لبنان
بتاريخ ١/المحرم/١٤٤٤هـ
الموافق له ٧/تموز/٢٠٢٢م

متن الحديث

عن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالجُبْنِ وَالبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ**»(١).

❀ ❀ ❀ ❀

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٣٦٩).

شرح الحديث

هذا حديث عظيم يخبرنا فيه الصحابي الجليل أنس بن مالك ﷺ: أن النبي ﷺ كان يستعيذ باللَّه تعالى من هذه الأمور الثمانية، ووردت رواية أخرى قال فيها أنس ﷺ: فَكُنْتُ أَسْمَعُهُ كَثِيرًا يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَنِ، وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ، وَالبُخْلِ وَالجُبْنِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ**»[1]، فما السرّ في كثرة استعاذة النبي ﷺ من هذه الأمور الثمانية؟

المتأمّل في هذه الأمور الثمانية يجد أن غالب تعاسة الناس في هذه الحياة تأتي بسببها، إذ إنّ هذه الأمور تنكّد على الناس عَيْشهم، وتُفسد عليهم

(١) أخرجها البخاري برقم (٢٨٩٣).

سعادتهم، وتملأ حياتهم بالمنغّصات، لذلك من أعانه اللَّه تعالى على اجتنابها والتخلّص منها فقد أوتي خيرًا كثيرًا، وأَحَسّ بطعم الحياة وجمال الأوقات.

ولنأتِ الآن بعون اللَّه تعالى إلى التعرّف على هذه المنغّصات، وسُبُل التخلّص منها، ولنبدأ بما بدأ به النبيّ ﷺ.

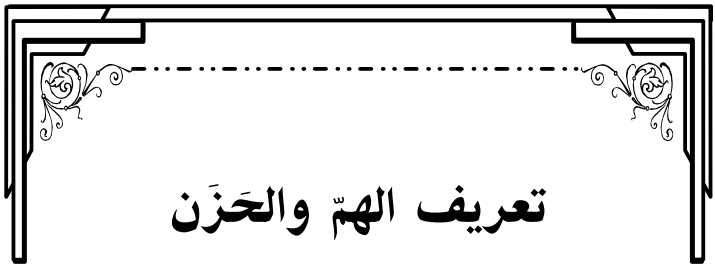

تعريف الهمّ والحَزَن

الهمّ هو ألم ينشأ في نفس الإنسان بسبب التفكير في أمر مؤذي يتوقّع حدوثه في المستقبل. كأن يقع الإنسان في مشكلة ما، ثم يبدأ بالتفكير في تداعيات هذه المشكلة وتفاقمها، وما قد ينشأ عنها من مخاوف ومخاطر، فيُنفق الساعات الطويلة في تقليب الآراء وتخمين المحاذير، حتى يعتريَه القلق والاضطراب، فتضعُف همّتُه وتفتُر عزيمتُه ويُصاب بالملل والإحباط، ويفقد رغبته في إنجاز أعماله اليوميّة. وأما الحَزَن فهو ألم ينشأ في النفس بسبب التفكير في شيء مؤلم قد ولّى ومضى. كأن يتذكّر الإنسان حادثة أليمة مرّت به، ثم يبدأ باستذكار تفاصيل الحادثة والظروف التي أحاطت بها والأسباب التي أدّت إليها، وينتهي به المطاف في

أغلب الأحيان إلى لَوْم نفسه وتأنيبها وتحميلها تَبِعات ما جرى، وأنّه لو لم يفعل كيت وكيت لما جرى عليه ما جرى، فيغرق في الماضي لساعات طويلة يُقلّب أوجاعه ويستحضر غصّاته في نفسه كأنّه يتجرّعها الآن، فيتذوّق مَرارتها من جديد، ويتمنّى أنْ لو عادت الأيام والساعات إلى الوراء حتى يُغيّر من تصرّفاته أو يعدّل من أقواله، كَيْ لا يقع فيما وقع فيه، فإذا أفاق من شُروده هذا وَجَد أنّ المرارة قد ملأت جوفَه، وعكّرت مِزاجَه، وضعّفت همّتَه.

التخلّص من الهمّ والحَزَن

لا شك أنّ الهمّ والحَزن من منغّصات العيْش، وأنّ الإنسان إذا ابتُلي بهما فسوف يخسر كثيرًا من سعادته وهدوئه وراحة باله، كما سيخسر كثيرًا من الاستمتاع بالحاضر وساعاته الحلوة، لذلك ترى كثيرًا من المُبتلين بالهمِّ والحزن لا يعيشون الحاضر ولا يستمتعون بأوقاته، بل تراهم مُنهَمِكين في ماضٍ بعيد يجْترّون أحزانه وغصّاته أو في مستقبل قريب يُكابدون نوازله التي لم تقع بعدُ إلا في أوهامهم، لذلك كان البحث في كيفية التخلّص من الهمّ والحَزن من أهمّ العلوم والمعارف الإنسانية.

وإذا تأمّلنا في سُنّة النبي ﷺ وهَدْيه في دفع الهمّ والحَزن، وجدنا أن النبي ﷺ قد أرشدنا إلى أمرَيْن:

❍ الأمر الأول هو: ترسيخ عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر في النفس.

فالإنسان كلّما زاد إيمانه بالقضاء والقدر كلّما ضعُف تأثير الهمّ والحزن في نفسه، وإليكم بعض التوضيح:

❋ ❋ ❋

أثر الإيمان بالقضاء والقدر في تخفيف الهمّ

ذكرنا أنّ الهمّ هو ألم ينشأ في نفس الإنسان بسبب التفكير في أمر مُضرٍّ يتوقّع حدوثه في المستقبل، فإذا تيقّن الإنسان أنّ هناك أقدارًا كتبها اللَّه تعالى عليه، وأنّها ستُصيبه لا محالة، وأنّه لا يدفعها تخطيط ولا تفكير، فعندها سوف يستريح من عَناء التفكير، ويُدرك أن العواقب التي يخشى وقوعها في المستقبل، إمّا أن تكون مكتوبة عليه، فهي واقعة لا محالة، ولن يصرفها همّ ولا انشغال بال. وإمّا أن لا تكون مكتوبة عليه، فهي لن تقع

أبدًا، وبالتالي لا داعي للهمّ بسببها، فالهمّ في الحالتين لا يُجدي شيئًا.

قال تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[1].

جاء في تفسير الآية الكريمة: أنّ المنافقين في عهد النبي ﷺ كانوا يراقبون أحواله، فإنْ أكرمه اللَّه تعالى بنصرٍ على أعدائه ساءهم ذلك، وإن ابتُلي بجراحات في نفسه أو في أصحابه سرّهم ذلك، وظنّوا أنّهم بفِطنتهم وحَذَرهم وتخلّفهم عنه نجَوْا ممّا ابتُلي به. فأرشد اللَّه تعالى رسولَه ﷺ إلى جوابهم فقال له: قل يا محمّد لهؤلاء المنافقين الذين يَسرّهم ما يصيبك من شرّ، ويُحزنهم ما يصيبك من خير، والذين خلت قلوبهم من الإيمان بقضاء اللَّه وقدره، قل لهم على سبيل التقريع والتبكيت: لن يصيبنا إلا

(١) التوبة: ٥٠ ـ ٥١.

ما كتبه اللَّه لنا، أي كل ما سيجري علينا من نصر أو جراحات فإنّما هو مكتوب علينا قبل خلق الخليقة، وهو لا يتغيّر تبعًا لموافقتكم ولا لمخالفتكم، وإنما يجري علينا وفق حكمة اللَّه ﷻ ومشيئته، فهو مولانا الذي يتولانا في كل أمورنا، ونلجأ إليه في كل أحوالنا، وعليه وحده سبحانه نكِل أمورنا وليس على أحد سواه[1].

❋ ❋ ❋

أثر الإيمان بالقضاء والقدر في تخفيف الحزن

قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ

(١) انظر: «التفسير الوسيط» لطنطاوي (٦/٣١٤)، وتفسير البيضاوي = «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٣/٨٤).

فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[١]. أي: اعلموا أيّها النّاس أنّه ما أصاب من مصيبة، سواء كانت هذه المصيبة كائنة في الأرض كالجفاف والزلازل والطوفان، أو في أنفسكم كالأسقام وموت الأقارب والأحباب، إلا وهذه المصائب مسجّلة في اللوح المحفوظ من قبل أن نخلق الخليقة. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أي: إن ذلك الذي أثبتناه في اللوح المحفوظ ممّا سيجري عليكم ويقع بكم قبل أن نخلقكم، يسير وسهل علينا، لأنّ قدرتنا لا يُعجِزها شيء، وعِلمنا لا يَعزُب عنه شيء.

فالآية الكريمة صريحة في بيان أنّ ما يقع في الأرض وفي الأنفس من مصائب، ومن غيرها من مسرّات، مكتوب ومسجّل عند اللَّه تعالى قبل خلق الأنفس، وخصّ سبحانه المصائب بالذكر، لأن الإنسان يضطرب لوقوعها اضطرابًا شديدًا، وكثيرًا ما يكون إحساسه بها، وإدراكه لأثرها، أشدّ من إحساسه وإدراكه للمسرّات.

(١) الحديد: ٢٢ ـ ٢٣.

ثم بيّن سبحانه الحِكمة في إطلاعنا على ذلك، فقال: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، أي: فعلنا ما فعلنا من إثبات ما يصيبكم في كتاب من قبل خلقكم، وأخبرناكم بذلك، لكي لا تحزنوا على ما أصابكم من مصائب، ولا تفخروا على الناس بما أنعم اللَّه به عليكم، فإنّ ذلك ليس بسعيكم ولا كدّكم، وإنّما هو عن مشيئته وحكمته، فلا تتّخذوا نِعم اللَّه عليكم أشرًا وبطرًا تفخرون بها على الناس، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، أي: مختال في نفسه، فخور على غيره(١).

ولكن كيف يكون علمنا بذلك مانعًا لنا من الحزن عند المصائب؟ والجواب: أنّ الإنسان إذا علم أن الحادثة التي أصابته كانت مكتوبة عليه قبل خلقه، وأنّه لم يكن بوسعه تفاديها مهما اتخذ من إجراءات وقائيّة وقتها، فعندها لن يقضي الساعات الطويلة في التفكير في تفاصيل الحادثة أو بلوْم نفسه

(١) انظر: «التفسير الوسيط» لطنطاوي (١٤/٢٢٤).

أنّه لو لم يفعل كيت وكيت لما جرى عليه ما جرى، بل يوقن أنّ ما جرى عليه كان أمرًا محتومًا ما كان بإمكانه تفاديه، فعندها تطمئنّ نفسه ويستريح باله. قال عبد اللَّه بن مسعود ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[١]، قال: «هُوَ الَّذِي إِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ رَضِيَ وَعَرَفَ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ»[٢]. وروى الترمذي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ**»[٣].

❍ **الأمر الثاني هو: الاستعانة باللَّه تعالى في دفع الهموم والأحزان.**

فالهموم والأحزان عبارة عن وساوس تقذفها شياطين الجنّ والإنس بتوجيه من إبليس في نفس الإنسان من غير إرادةٍ منه، فتَحْمِله في الهموم على

(١) التغابن: ١١.
(٢) صحيح البخاري (٦/١٥٥).
(٣) أخرجه الترمذي، وصحّحه الألباني في «صحيح وضعيف سنن الترمذي» برقم (٢١٤٤).

التشاؤم وتوقّع الشرّ دائمًا، وتَصْرِفه عن التفاؤل وتوقّع الخير. فالتشاؤم أصله من إبليس، الذي يوحيه إلى أوليائه من شياطين الجنّ والإنس، بخلاف التفاؤل وتوقّع الخير فإنّه من اللَّه تعالى.

قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾[1]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: ومعنى قوله تَعَالَى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ أَيْ: يُخَوِّفُكُمُ الْفَقْرَ لِتُمْسِكُوا مَا بِأَيْدِيكُمْ فَلَا تُنْفِقُوهُ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ. ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أَيْ: مَعَ نَهْيِهِ إِيَّاكُمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ خَشْيَةَ الْإِمْلَاقِ، يَأْمُرُكُمْ بِالْمَعَاصِي وَالْمَآثِمِ والمحارم ومخالفة الخلّاق. قال تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ﴾ أَيْ فِي مُقَابَلَةِ مَا أَمَرَكُمُ الشَّيْطَانُ بِالْفَحْشَاءِ، ﴿وَفَضْلًا﴾ أَيْ: فِي مُقَابَلَةِ مَا خَوَّفَكُمُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْفَقْرِ، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾»[2].

وروى الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

(١) البقرة: ٢٦٨.

(٢) تفسير ابن كثير، ط. العلمية (١/٥٣٨).

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ المَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ الآيَةَ»[1]. ففي هذا الحديث يبيّن النبي ﷺ أن للشيطان لمّة بابن آدم، وهي الخطرات والوساوس التي يلقيها الشيطان في قلب الإنسان. وللمَلَك لمّة، وهو الإلهام الذي يلقيه الملَك في قلب الإنسان. ثم بيّن النبي ﷺ أنّ لمّة الشيطان تقوم على إيعاد النّاس بالشرّ كتخويفهم من الفقر إذا أرادوا أن يُنفقوا، ومن السجن إذا أرادوا أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وإغرائهم بتكذيب الحق، كتكذيب التوحيد والنبوّة والبعث والقيامة والجنّة والنّار.

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢٩٨٨)، وصحّحه الألباني في «تراجعات الألباني» برقم (٢١).

وأما لمّة الملَك فتقوم على إيعاد الناس بالخير كتبشيرهم بتعويض اللَّه عليهم إذا أنفقوا، وحفظ اللَّه لهم من السوء إذا أمروا بالمعروف ونهَوْا عن المنكر، وإغرائهم بتصديق الحق، كالإيمان بالتوحيد والنبوة والبعث والقيامة والجنّة والنّار. فمن وردت على قلبه خاطرة تُرغّبه بالخير، فليعلم أنّها من الملائكة وليحمد اللَّه تعالى أنْ أمر ملائكته ليُلهموه الخير، وإن وردت على قلبه خاطرة تُرغّبه بالشرّ، فلْيعلم أنّها من الشيطان ولْيستعذ باللَّه تعالى من شرّ الشيطان ولْيتجنّبها.

وأمّا في الأحزان فتَحْمِل الوساوسُ الإنسانَ على جَلْد نفسه وتأنيبها من غير فائدة تُرجى له، لأنّ ما مضى قد مضى، ولن ينفع الجلد ولا التأنيب في تغييره، إلا أن الشيطان يفرح بتحزين المؤمنين. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾[1]. والنجوى هي التحدّث سرًّا، ومعنى

(١) المجادلة: ١٠.

الآية: إنّما النّجوى المعهودة التي كان يتناجى بها المنافقون فيما بينهم، حيث كانوا يتحدثون فيما بينهم سِرًّا على مرأىً من المؤمنين، والوقت وقت حرب فيوهمون المؤمنين أن مؤامرة تحاك ضدهم، فهذه النجوى كائنة من الشيطان لا من غيره، لأنه هو الذي حرّضهم عليها وأغراهم بها، ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: زيّن الشيطان للمنافقين هذه النجوى السيّئة، لكي يُحزِن المؤمنين، بسبب ظنّهم أنّ من وراء هذه النجوى أخبارًا سيّئة تتعلق بهم أو بذويهم، فالشيطان فعل كل هذا لهدفٍ واحدٍ وهو: إدخال الحُزن والغمّ على قلوب المؤمنين[1]. كما تَحْمِله الوساوس في الأحزان على تسخّط قضاء اللَّه تعالى، لأنّ ما ابتلي به إنّما كان بقضاءٍ من اللَّه تعالى، فتحسّره على وقوعه يدلّ على تسخّطه لقضاء اللَّه تعالى وعدم الرضا به. روى الترمذي وابن ماجه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«عِظَمُ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا**

(١) انظر: «التفسير الوسيط» لطنطاوي (٢٥٩/١٤)، و«أيسر التفاسير» للجزائري (٢٨٩/٥).

ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»[١].

فإذا علمنا أنّ الهموم والأحزان تتشكّل في النفس البشرية عن طريق ما تُوسْوِسه شياطين الجنّ والإنس للنّاس، لم يكن إذًا من سبيل لصرفها عن النفس إلا باللجوء إلى اللَّه والاستعاذة به من شرورها، لأنّ الإنسان قد يتمكن من تجنّب شياطين الإنس من خلال مداراتهم ومصانعتهم، أمّا شياطين الجنّ فلا تنفع معهم مداراة ولا مصانعة لأن هدفهم الوحيد إيذاء المؤمنين وإضلالهم، كما لا ينفع اجتنابهم لأنهم يروننا ولا نراهم بخلاف شياطين الإنس. قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾[٢]. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيْ إِنَّ شَيْطَانَ الْإِنْسِ رُبَّمَا يَنْخَدِعُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، فَأَمَّا شَيْطَانُ الْجِنِّ فَإِنَّهُ لَا حِيلَةَ فِيهِ إِذَا وَسْوَسَ إِلَّا الِاسْتِعَاذَةَ بِخَالِقِهِ الَّذِي سَلَّطَهُ عَلَيْكَ،

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه، وحسّنه الألباني في «صحيح وضعيف سنن ابن ماجه» برقم (٤٠٣١).
(٢) فصلت: ٣٦.

فَإِذَا اسْتَعَذْتَ بِاللَّهِ وَلَجَأْتَ إِلَيْهِ كَفَّهُ عَنْكَ وَرَدَّ كَيْدَهُ»[١]. وقال سيد طنطاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالآية الكريمة ترشد المؤمن إلى العلاج الذي يحميه من وسوسة الشيطان وكيده، ألا وهو الاستعاذة باللَّه السميع لكل شيء، العليم بكل شيء القادر على كل شيء»[٢].

(١) تفسير ابن كثير، ط. العلمية (١٦٦/٧).
(٢) «التفسير الوسيط» لطنطاوي (٣٥٣/١٢).

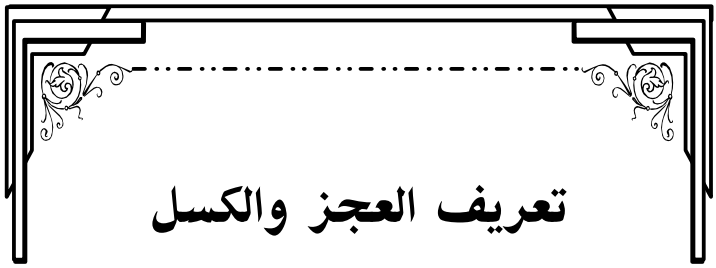

تعريف العجز والكسل

الإنسان مأمور أن يسعى في سبيل تحصيل المنافع الدينية والدنيوية، فإذا ترك السعي لأنه غير قادر فهذا هو العاجز، وأمّا إن ترك السعي وهو قادر ولكن لعدم رغبة عنده أو هِمّة فهذا هو الكسلان، فالعجز يكون بسبب عدم القدرة، وأمّا الكسل فيكون بسبب عدم الإرادة والرغبة.

والكسل يُلام عليه الإنسان ويُذمّ به، لأنه قادر على الإنجاز ولم يفعل، وأمّا العجز فلا يُلام عليه الإنسان لأنّه غير قادر، إلا إذا كان العجز بسبب استمراء الكسل وتوهّم عدم القدرة فعندها يُلام عليه الإنسان ويُذمّ به، ولعلّ العجز الوارد ذكره في الحديث يشمل المعنييْن معًا واللَّه أعلم.

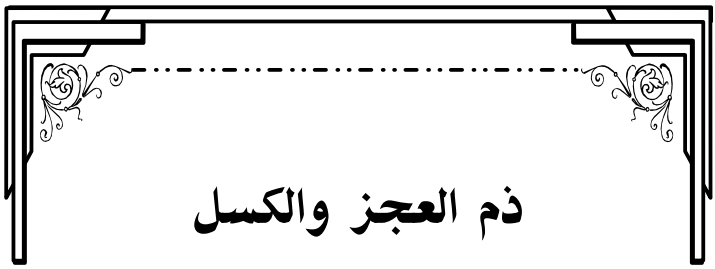

ذم العجز والكسل

والسبب في ذمّ العجز والكسل واستعاذة النبي ﷺ منهما، أنّهما يثبّطان الإنسان عن تحصيل المنافع الدينية والدنيوية، ويَحمِلانه على التفريط في واجباته الدينية والدنيوية.

قال تعالى في ذمّ صفات المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾[1]. وروى أبو داود عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ**»[2]، أي: إذا امتنع المرء

(١) النساء: ١٤٢.

(٢) أخرجه أبو داود، وحسّنه الألباني في «صحيح وضعيف سنن أبي داود» برقم (١٦٩٢).

من الإنفاق على من تلزمه نفقتهم من زوجة وولد وغيرهم، مع قدرته على الإنفاق عليهم، حتى شردوا وضاعوا فهو يتحمّل إثم ضياعهم عند اللَّه، ويدخل في هذا الباب: من امتنع من الإنفاق عليهم لإيثار نفسه عليهم، وهذا هو البخيل. كما يدخل فيه من تصدّق على الأقارب والمساكين وترك عياله بلا نفقة، وهذا هو الجاهل، والجهل في الحقيقة: عجْز في العقل وقصور في الفهم. كما يدخل فيه من تقاعس عن العمل والاكتساب مع قدرته على ذلك، وهذا هو الكسلان.

وقد ندب النبي ﷺ المسلمين إلى بذل ما بوسعهم لتحصيل ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، فروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ،**

فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[١].

ففي هذا الحديث بيّن النبي ﷺ أنّ المؤمن الذي يسعى في تحصيل أسباب القوة من علم أو مال أو جاه ويصل إليها ويستخدمها في طاعة اللَّه تعالى وفي نفع العباد، خير من المؤمن الذي يتقاعس عن تحصيل أسباب القوة ويصبح ضعيفًا وعالة على غيره. لذلك حضّ النبي ﷺ المسلم على بذل جهده في تحصيل ما ينفعه في دينه ودنياه والاستعانة باللَّه تعالى على تحقيق مبتغاه، ونهاه عن العجْز، والعجز هنا جاء بمعنى استمراء الكسل وتوهّم عدم القدرة، لأنّ العجز لو كان بمعنى عدم القدرة حقيقة وليس توهّمًا لما نهى عنه، لأنّ النهي لا يكون إلا عن شيء يُستطاع تركه.

❀ ❀ ❀ ❀

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٦٦٤).

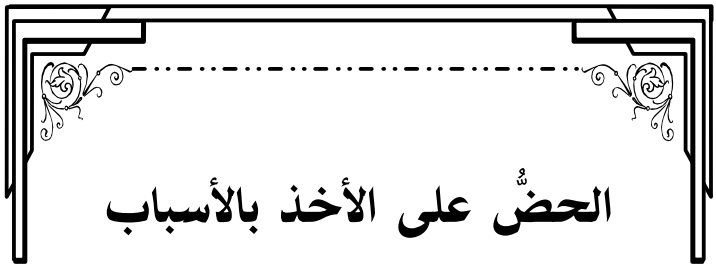

الحضُّ على الأخذ بالأسباب

هذا الحديث رسم لنا المنهاج الذي يجب أن يتبعه المسلم في حياته. فالمسلم مأمور أن يسعى لاكتساب أسباب القوة، وأن يبذل كامل جهده في تحصيل المنافع الدينية والدنيوية، ولا يجوز له أن يركن إلى الخمول والكسل الذي يؤدي به في النهاية إلى الإحباط والعجز.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[1]. فالآية الكريمة دعوة حارّة للمسلمين للعمل والسعي لكي ينتفعوا بما في الأرض من أرزاق وكنوز، حتى يستغنوا عن غيرهم في مطعمهم ومشربهم وملبسهم

(١) تبارك: ١٥.

وسائر أمور معاشهم.. فإنه بقدر تقصيرهم في استخراج كنوزها، تكون حاجتهم لغيرهم[١].

فالسعي مطلوب حتى لو كنّا في حالة ضعف، فعلينا أن نسعى على قدْر طاقتنا ولا نترك المحاولة. وقد ذكر اللَّه تعالى في القرآن الكريم قصة مريم عليها السلام حين وضعت عيسى عليه السلام، وكانت في غاية من الضعف والإرهاق، ومع هذا أمرها اللَّه تعالى على لسان عيسى عليه السلام، حين احتاجت إلى الطعام، أن تبذل جهدها بهزّ النخلة التي تستند إليها، مع أن اللَّه سبحانه وتعالى قادر على أن يُسقط عليها الثمار من غير هزّ منها، وكيف لا وهو الذي أنطق لها عيسى في المهد ساعة وضْعه حتى كلّمها، ولكن أمرها بذلك حتى يُعلمنا الأخذ بالأسباب التي بوسعنا القيام بها[٢]. قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ

(١) انظر: «التفسير الوسيط» لطنطاوي (١٩/١٥).

(٢) انظر: «أيسر التفاسير» للجزائري (٣٠٣/٣).

ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾﴾[١].

والسعي مطلوب حتى ولو أيقنّا أن ثمار سعينا لن نراها في هذه الحياة.

ففي الحديث الذي رواه أحمد عن أنس رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا**»[٢]. ففي هذا الحديث يحثُّنا النبي ﷺ على السعي والغرس والعمل حتى لو كنّا موقنين أنّنا لن ندرك ثمار ما غرسناه أو نتاج ما بذلناه في حياتنا هذه.

واليوم نرى تقصير الشباب الملتزم بهذا المنهج، إذ رأينا كثيرًا من الشباب الملتزم يقنع بالقليل من العمل ولا يبذل جهدًا كافيًا لتحصيل أسباب القوّة، سواء كانت القوة بالعلم أو بالمال أو بالجاه. ولا أقصد بالقوّة العلميّة حصرها بالعلوم

(١) مريم: ٢٢ ـ ٢٥.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٣/١٨٣، ١٨٤، ١٩١)، وصحّحه الألباني في «الصحيحة» برقم (٩).

الشرعيّة بل تعديتها إلى العلوم التطبيقية التي تحتاجها الأمّة في بناء حضارتها وتثبيت دعائمها، كالطب والهندسة وبرمجة الكمبيوتر وغيرها من العلوم والتكنولوجيا، والتي اعتبرها كثير من الفقهاء من فروض الكفاية على الأمّة، بمعنى أنّه فرض على الأمّة أن تستغني بأبنائها في سدّ حاجياتها من هذه العلوم حتى لا تعتمد فيها على غيرها من الأمم، وإلا وقعت في الإثم والحرج.

ولمّا تقاعس كثير من الشباب الملتزم عن الأخذ بأسباب القوة، بادر إليها الفسّاق والمنحرفون في عقائدهم وأخلاقهم حتى استبدّوا بالنفوذ والجاه والمناصب، وصارت موارد الأمّة وقراراتها بأيدي فُسّاقها في حين سيطر الجهل والضعف على كثير من الملتزمين، فكان هذا من أكبر أسباب انحطاط الأمّة.

ومن هنا كان الخليفة المُلهم عمر بن الخطاب ﷺ يقول: اللهم إني أعوذ بك من جَلَد الفاجر وعجْز الثقة.

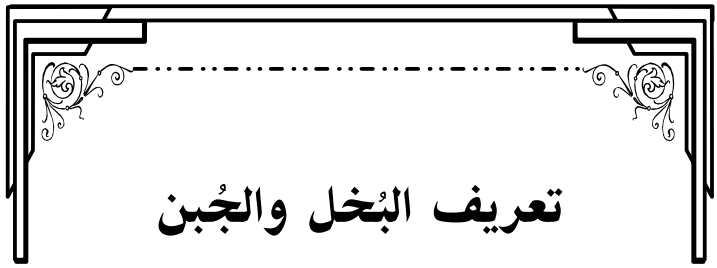

تعريف البُخل والجُبن

البخل هو: الحرص على المال وعدم الإنفاق حتى في الأمور الواجبة.

وأما **الجبن** فهو: الحرص على السلامة وعدم الإقدام حتى في الأمور الواجبة.

ذمّ البخل والجبن

وقد ذمّ النبي ﷺ هذين الخُلُقيْن أشدّ الذمّ، ففي الحديث الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ**»(١)، أي: شرّ صفات الرجل أن تكون فيه هاتان الخِصلتان: شحّ هالع، أي: بخل شديد يقوده إلى الهلع والخوف من الإنفاق. وجبن خالع، أي: جبن شديد بحيث ينخلع قلبه عند أدنى خوف أو خطر.

وفي الحديث الذي رواه البخاري في الأدب المفرد عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه قال: قَالَ

(١) أخرجه أبو داود، وصحّحه الألباني في «صحيح وضعيف سنن أبي داود» برقم (٢٥١١).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلمَةَ؟**» قُلْنَا: جُدُّ بْنُ قَيْسٍ، عَلَى أَنَّا نُبَخِّلُهُ. قَالَ: «**وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ! بَلْ سَيِّدُكُمْ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ**»(١). فالنبي ﷺ لم يرضَ لبني سلمة أن يكون سيّدهم رجلًا بخيلًا، لأنه لا علّة في الرجل أشنع من علّة البخل، وفي هذا أعظم الزجر عن صفة البخل.

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد»، وصحّحه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» برقم (٢٢٧/٢٩٦).

سبب استعاذة النبيِّ ﷺ من البخل والجبن

استعاذ النبي ﷺ من هاتين الخصلتين، لما فيهما من مضارّ على دين الناس ودنياهم، وإليكم بيان بعض مضارّهما:

مضارّ البخل على المجتمع

الإنسان في هذه الحياة عليه حقوق والتزامات يجب أن يؤديها، منها:

١ ـ التزام نحو نفسه، ففي الحديث الذي رواه النسائي عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه، أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فِي ثَوْبٍ دُونٍ(١)، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلَكَ**

(١) أي: ثوب بالي مهترئ.

مَالٌ؟» قَالَ: نَعَمْ، مِنْ كُلِّ الْمَالِ. قَالَ: «**مِنْ أَيِّ الْمَالِ؟**» قَالَ: قَدْ آتَانِي اللَّهُ مِنَ الْإِبِلِ، وَالْغَنَمِ، وَالْخَيْلِ، وَالرَّقِيقِ. قَالَ: «**فَإِذَا آتَاكَ اللَّهُ مَالًا، فَلْيُرَ عَلَيْكَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ**»(١).

٢ ـ ومنها التزام نحو زوجته وأولاده، ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُول**»(٢).

وروى أبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالصَّدَقَةِ. فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عِنْدِي دِينَارٌ. فَقَالَ: «**تَصَدَّقْ بِهِ عَلَى نَفْسِكَ**». قَالَ: عِنْدِي آخَرُ. قَالَ: «**تَصَدَّقْ بِهِ عَلَى وَلَدِكَ**». قَالَ: عِنْدِي آخَرُ. قَالَ: «**تَصَدَّقْ بِهِ عَلَى زَوْجَتِكَ**». قَالَ: عِنْدِي آخَرُ. قَالَ: «**تَصَدَّقْ بِهِ عَلَى خَادِمِكَ**». قَالَ:

---

(١) أخرجه النسائي، وصحّحه الألباني في «صحيح وضعيف سنن النسائي» برقم (٥٢٢٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٣٥٦)، ومسلم برقم (١٠٦).

عِنْدِي آخَرُ. قَالَ: «**أَنْتَ أَبْصَرُ**»(١).

٣ ـ ومنها التزام نحو أقاربه، روى البخاري ومسلم عن أَنَس بْن مَالِكٍ ﷺ قال: «كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ. قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(٢)، قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا**

(١) أخرجه أبو داود، وحسّنه الألباني في «صحيح وضعيف سنن أبي داود» برقم (١٦٩١).

(٢) آل عمران: ٩٢.

فِي الأَقْرَبِينَ». فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ»(١).

٤ ـ ومنها التزام نحو أصحابه، روى مسلم عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ: دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**»(٢). فهذه التزامات على الإنسان نحو هؤلاء وغيرهم، منها ما هو واجب عليه ومنها ما هو مندوب إليه، فإن بخل بالتزاماته وهو موسر أدّى به بخله إلى مفاسد كبيرة. فإن بخل على نفسه فقد أساء إليها. وإن بخل على أهله فقد عرّضهم للضياع كما مرّ معنا آنفًا. وإن بخل على أقاربه فقد قطع رحمهم، وإن بخل على فقراء قومه فقد أغرى بينه وبينهم العداوة والبغضاء، وإن بخل على المجاهدين في سبيل اللَّه فقد ضعّف شوكة الإسلام.

(١) أخرجه البخاري برقم (١٤٦١)، ومسلم برقم (٩٩٨).
(٢) أخرجه مسلم برقم (٩٩٤).

روى أبو داود والبيهقي في شُعَب الإيمان عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَاحِشَ الْمُتَفَحِّشَ. وَإِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ، فَإِنَّهُ عِنْدَ اللَّهِ ظُلْمَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ وَالْبُخْلَ، فَإِنَّهُ دَعَا مَنْ قَبْلَكُمْ إِلَى أَنْ يَقْطَعُوا أَرْحَامَهُمْ فَقَطَعُوهَا، وَدَعَاهُمْ إِلَى أَنْ يَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَهُمْ فَاسْتَحَلُّوهَا، وَدَعَاهُمْ إِلَى أَنْ يَسْفِكُوا دِمَاءَهُمْ فَسَفَكُوهَا**»(١).

❋ ❋ ❋

مضارّ الجبن على المجتمع

وأمّا الجبن فله مضارّ شديدة أيضًا على دين الناس ودنياهم.

فالمسلم عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (١٠٣٣٩) من حديث أبي هريرة، كما أخرجه أحمد برقم (٦٧٩٢) بأطول منه من حديث عبد اللَّه بن عمرو، وصحّحه شعيب الأرناؤوط في تحقيقه على المسند.

المنكر، وأن يقول الحق لا يخاف في اللَّه لومة لائم. روى أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ رَهْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا رَآهُ أَوْ شَهِدَهُ، فَإِنَّهُ لَا يُقَرِّبُ مِنْ أَجَلٍ، وَلَا يُبَاعِدُ مِنْ رِزْقٍ، أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ أَوْ يُذَكِّرَ بِعَظِيمٍ**»[1]. فإذا جبُن الناس عن قول الحق انتشر المنكر في حياتهم وأدّى ذلك إلى خراب البلاد، فهذه بعض مضارّ الجبن.

فالبخل والجبن إذا اجتمعا في رجل أفسدا عليه دينه ودنياه، لأن البخيل يجمع المال ولا يتمتع به لبخله، والجبان لا يذوق طعم السعادة، لأنه يبقى في خوف وقلق من أيّ شيء، فهذه خسارة له في الدنيا، وأما خسارته في الدين فلما ضيّع من حقوق اللَّه وحقوق العباد.

(١) أخرجه أحمد برقم (١١٤٧٤)، وصحّح إسناده الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها» برقم (١٦٨).

مضارّ البخل والجبن على الأمّة

ذكرتُ بعض مضارّ البخل والجبن على الفرد والمجتمع، وأمَا مضارّهما على الأمّة فعظيمة. فالبخل والجبن إذا اجتمعا في أمّة فسوف تفقد عزّتها وكرامتها كما ستخسر ازدهارها ورخاءها.

فالإسلام لما جاء إلى الجزيرة العربية آمن به كثير من العرب، ولم تمض إلا فترة وجيزة من الزمن حتى انقلبت حياة العرب رأسًا على عقب.

فبعد أن كانوا متفرّقين صاروا أمّة موحّدة، وبعد أن كانوا جياعًا حفاة عراة ملكوا كنوز كسرى وقيصر، وبعد أن كانوا لا يحكمون إلا في حدود مساكن القبيلة إذا بهم قد صاروا يتحكّمون ببلاد شاسعة تمتدّ من الصين إلى الأندلس، فما الذي تغيّر في حياتهم حتى صاروا إلى ما صاروا إليه؟

هل تغيّر الأشخاص فرحل جيل النكبة ليخلفه جيل العزة والكرامة؟ كلا؛ لم يحصل هذا، فالذين فُتحت عليهم هذه الفتوحات هم الذين كانوا بالأمس القريب حفاة عراة متفرّقين، فالجيل لم يُستبدل بل بقي كما هو، ولكن الذي تغيّر فيهم فأبدل أحوالهم إلى أحسن حال هو التغيّر في عقائدهم وفي أخلاقهم.

ومن الأخلاق التي تغيّرت فيهم فأثّرت في تحسين أحوالهم هما هذان الخلقان: البخل والجبن. فبعد أن كان أحدهم يقتل أولاده وهم صغار خشية أن يأكلوا من طعامه، إذا به بعد الإسلام يقول لرجل ليس بينه وبينه قرابة من المهاجرين: لك نصف داري ونصف مالي. وبعد أن كانوا لا يجرؤون على قتال الفرس والروم خوفًا من الموت المحتّم بما رسخ في نفوسهم من سطوتهم وشدّة بأسهم، إذا بهم يتحدّون الفرس والروم في عُقر دارهم ويقول قائدهم لملك الفرس: لقد جئتك بقوم يحبّون الموت كما تحبّون الحياة.

فالإسلام لمّا جاء صحّح عقائدهم وتصوراتهم

عن الإلٰه والكون والحياة والموت والبعث، كما هذّب أخلاقهم فبغّض إليهم سيّئ الأخلاق وأرشدهم إلى مكارمها. وممّا بغّضه إليهم من الأخلاق: الجبن والبخل، وممّا حبّبه إليهم من المكارم: الكرم والشجاعة. فالإسلام علّمهم أنّ الإقدام على القتال لا يُنقص من أعمارهم، وأنّ الجبن لا يزيد فيها، كما علّمهم أنّ الإنفاق في الخير لا يُنقص من أموالهم، وأنّ البخل لا يزيد فيها، حتى صار القوم غير القوم وصارت الحياة غير الحياة.

روى أحمد والحاكم عن بَشِيرِ ابْنِ الْخَصَاصِيَّةِ السَّدُوسِيِّ ﷺ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ لِأُبَايِعَهُ، قَالَ: فَاشْتَرَطَ عَلَيَّ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنْ أُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَأَنْ أُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ، وَأَنْ أَحُجَّ حَجَّةَ الْإِسْلَامِ، وَأَنْ أَصُومَ شَهْرَ رَمَضَانَ، وَأَنْ أُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَّا اثْنَتَانِ، فَوَاللَّهِ مَا أُطِيقُهُمَا: الْجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ، فَإِنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُ مَنْ وَلَّى الدُّبُرَ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، فَأَخَافُ إِنْ حَضَرْتُ تِلْكَ جَشِعَتْ نَفْسِي، وَكَرِهَتِ الْمَوْتَ، وَالصَّدَقَةُ فَوَاللَّهِ مَا لِي إِلَّا غُنَيْمَةٌ وَعَشْرُ

ذَوْدٍ، هُنَّ رَسَلُ أَهْلِي وَحَمُولَتُهُمْ. قَالَ: فَقَبَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ، ثُمَّ حَرَّكَ يَدَهُ، ثُمَّ قَالَ: **فَلَا جِهَادَ وَلَا صَدَقَةَ، فَبِمَ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِذًا.** قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أُبَايِعُكَ. قَالَ: فَبَايَعْتُهُ عَلَيْهِنَّ كُلِّهِنَّ»(١).

وإذا نظرنا إلى واقعنا الذي نعيشه اليوم، نجد أنّ الأمّة المسلمة قد انقلبت أحوالها رأسًا على عقب. فبعد أن كانت عزيزة ممكّنة في الأرض، رجعت أمّة فقيرة ذليلة مستضعفة لا يُحسَب لها حساب ولا يُعبأ بها بين الأمم.

وكل ذلك مرجعه إلى فساد العقائد وفساد الأخلاق، ورجوع الناس إلى ما كانوا عليه في الجاهلية. ومن الأخلاق التي فسدت وأثّرت في تراجع أحوال الأمة هو: استبدال الكرم بالبخل واستبدال الشجاعة بالجبن.

---

(١) أخرجه أحمد برقم (٢١٩٥٢)، والحاكم في «المستدرك على الصحيحين» برقم (٢٤٢١)، وصحّح الحاكم إسناده ووافقه الذهبي.

روى أبو داود عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**. فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: **بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ**. فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: **حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»(١).

ففي هذا الحديث يبيّن النبي ﷺ أنّ تراجع الأمّة يكون بسبب الوَهْن الذي يُقذف في قلوبها من حبّ الدنيا وكراهية الموت، وحبّ الدنيا يُورِث في الناس البخل، وأمّا كراهية الموت فتُورث فيهم الجبن. لذلك لا أمل للأمة بالرجوع إلى سابق مجدها وعزّها إلا بتحسين عقائدها وأخلاقها.

(١) أخرجه أبو داود، وصحّحه الألباني في «صحيح وضعيف سنن أبي داود» برقم (٤٢٩٧).

تعريف ضَلَع الدَّيْن

أصل **الضَّلَع** في اللغة: الاعوجاج، والمراد به هنا: ثِقلُ الدَّيْنِ وشدّتُه، لأنّ الدَّيْن إذا اشتدّ مال بصاحبه عن الاستواء إلى الاعوجاج، وذلك حين لا يجد مَنْ عليه الدَّيْن وفاء لدَيْنه لا سيما مع المطالبة.

روى البخاري ومسلم عن عُرْوَة بْن الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنّها أَخْبَرَتْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا، وَفِتْنَةِ المَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ المَأْثَمِ وَالمَغْرَمِ**». فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنَ المَغْرَمِ؟ فَقَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ، حَدَّثَ فَكَذَبَ، وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ**»[1].

(١) أخرجه البخاري برقم (٨٣٢)، ومسلم برقم (٥٨٩).

تعظيم أمر الدَّيْن

الإسلام عظّم أمر الدَّيْن وشدّد فيه حتى روى البخاري عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ ﷺ قَالَ: «كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، إِذْ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ، فَقَالُوا: صَلِّ عَلَيْهَا. فَقَالَ: «**هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟**» قَالُوا: لَا. قَالَ: «**فَهَلْ تَرَكَ شَيْئًا؟**» قَالُوا: لَا. فَصَلَّى عَلَيْهِ. ثُمَّ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ أُخْرَى، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صَلِّ عَلَيْهَا. قَالَ: «**هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟**» قِيلَ: نَعَمْ. قَالَ: «**فَهَلْ تَرَكَ شَيْئًا؟**» قَالُوا: ثَلَاثَةَ دَنَانِيرَ. فَصَلَّى عَلَيْهَا. ثُمَّ أُتِيَ بِالثَّالِثَةِ، فَقَالُوا: صَلِّ عَلَيْهَا. قَالَ: «**هَلْ تَرَكَ شَيْئًا؟**» قَالُوا: لَا، قَالَ: «**فَهَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟**» قَالُوا: ثَلَاثَةُ دَنَانِيرَ، قَالَ: «**صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ**». قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: صَلِّ عَلَيْهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَعَلَيَّ دَيْنُهُ. فَصَلَّى عَلَيْهِ»[1].

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٢٨٩).

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ إِشْعَارٌ بِصُعُوبَةِ أَمْرِ الدَّيْنِ وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي تَحَمُّلُهُ إِلَّا مِنْ ضَرُورَةٍ(١).

(١) فتح الباري (٤/٤٦٨).

لماذا عظّم الإسلام أمر الدَّيْن؟

عظّم الإسلام أمر الدَّيْن لأنه يتعلق بحقوق العباد، والعباد في الآخرة لا يسامحون بحقوقهم بسبب حاجتهم إلى الحسنات وتشوّفهم إليها.

روى مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي قَتَادَةَ، عَنْ أَبِي قَتَادَةَ ﵁ أَنَّهُ سَمِعَهُ يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ فَذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ. فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**نَعَمْ، إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ**». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**كَيفَ قُلْتَ؟**» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**نَعَمْ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إِلَّا الدَّيْنَ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِي ذَلِكَ**»(١).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «**إلا الدَّيْنَ**»، فَفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى جَمِيعِ حُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ، وَأَنَّ الْجِهَادَ وَالشَّهَادَةَ وَغَيْرَهُمَا مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ لَا يُكَفِّرُ حُقُوقَ الْآدَمِيِّينَ وَإِنَّمَا يُكَفِّرُ حُقُوقَ اللَّه تَعَالَى. وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «**نَعَمْ**»، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: «**إِلَّا الدَّيْنَ**»، فَمَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِهِ فِي الْحَالِ، وَلِهَذَا قَالَ ﷺ: «**إلا الدَّيْن، فَإِنَّ جِبْرِيلَ قَالَ لِي ذَلِكَ**»، وَاللَّهُ أَعْلَمُ»(٢).

(١) أخرجه مسلم برقم (١٨٨٥).
(٢) شرح النووي على مسلم (٢٩/١٣).

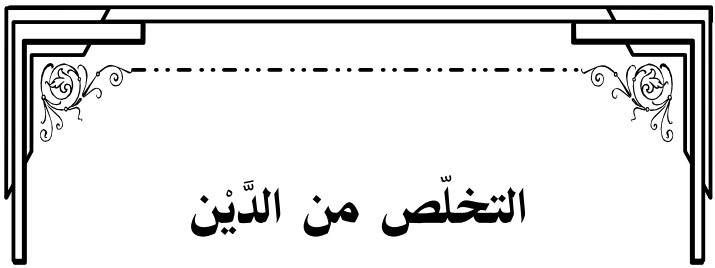

التخلّص من الدَّيْن

إذا استدان الإنسان لأمر يحتاجه في حياته ثم لم يتمكّن من وفاء دينه، فعليه أمران:

الأمر الأول: أن يجتهد في السعي لوفاء ديْنه، ولا يتباطأ عن السعي أو يتكاسل كأنّه غير آبِهٍ به، فإنّ اللَّه تعالى إذا علم منه حرصًا على وفاء ديْنه أعانه ويسّر له أسبابًا لذلك، ثم لو عاجله الموت قبل أن يوفّي ديْنه، فإنّ اللَّه تعالى يتولّى إرضاء صاحب المال عنه يوم القيامة من غير أن يُنقص من حسناته شيئًا. أمّا إن استدان المال وهو غير حريص على وفائه ولا آبِهٍ به، فهذا يؤاخذ بنيّته في الدنيا والآخرة.

روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا**

أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ»[١].

قال الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ: وَتَأْدِيَةُ اللَّهِ عَنْهَا يَشْمَلُ تَيْسِيرَهُ تَعَالَى لِقَضَائِهَا فِي الدُّنْيَا بِأَنْ يَسُوقَ إِلَى الْمُسْتَدِينِ مَا يَقْضِي بِهِ دَيْنَهُ، وَأَدَاؤُهَا عَنْهُ فِي الْآخِرَةِ بِإِرْضَائِهِ غَرِيمَهُ بِمَا شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال: وَقَوْلُهُ: «**أَتْلَفَهُ اللَّهُ**»، الظَّاهِرُ إِتْلَافُ الشَّخْصِ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا بِإِهْلَاكِهِ، وَهُوَ يَشْمَلُ ذَلِكَ، وَيَشْمَلُ إِتْلَافَ طَيِّبِ عَيْشِهِ وَتَضْيِيقِ أُمُورِهِ وَتَعَسُّرَ مَطَالِبِهِ وَمَحْقَ بَرَكَتِهِ، وَيَحْتَمِلُ إِتْلَافَهُ فِي الْآخِرَةِ بِتَعْذِيبِهِ[٢].

الأمر الثاني: أن يتوجّه إلى اللَّه تعالى ويدعوه بقلب صادق في وفاء دَيْنه.

ويُستدلّ لهذا بحديث الكتاب أنّ النبي ﷺ كان يتوجّه إلى اللَّه تعالى ويستعيذ به من غلبة الدَّيْن.

كما يُستأنس لهذا المعنى بحديث رواه أبو داود عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ ﷺ

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٣٨٧).
(٢) سبل السلام (٢/٧٠).

ذَاتَ يَوْمِ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، يُقَالُ لَهُ: أَبُو أُمَامَةَ، فَقَالَ: «**يَا أَبا أُمَامَةَ، مَا لِي أَرَاكَ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الصَّلَاةِ؟**» قَالَ: هُمُومٌ لَزِمَتْنِي، وَدُيُونٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «**أَفَلَا أُعَلِّمُكَ كَلَامًا إِذَا أَنْتَ قُلْتَهُ أَذْهَبَ الله ﷻ هَمَّكَ وَقَضَى عَنْكَ دَيْنَكَ؟**» قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «**قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ**». قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ، فَأَذْهَبَ اللَّهُ ﷻ هَمِّي وَقَضَى عَنِّي دَيْنِي(١).

❀ ❀ ❀ ❀

---

(١) أخرجه أبو داود، وضعّفه الألباني في «صحيح وضعيف سنن أبي داود» برقم (١٥٥٥).

تحمّل النبيِّ ﷺ ديون الناس

كان النبيّ ﷺ في أوّل الأمر لا يصلي على من عليه الدَّيْن إلا إذا تحمّل بعض الصحابة الدَّيْن عنه، فلمّا وسّع اللَّه تعالى عليه في المال في آخر الأمر صار يتحمّل ديون المسلمين. روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، كَانَ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ الْمَيِّتِ عَلَيْهِ الدَّيْنُ، فَيَسْأَلُ: «**هَلْ تَرَكَ لِدَيْنِهِ مِنْ قَضَاءٍ؟**» فَإِنْ حُدِّثَ أَنَّهُ تَرَكَ وَفَاءً، صَلَّى عَلَيْهِ، وَإِلَّا، قَالَ: «**صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ**». فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْفُتُوحَ، قَالَ: «**أَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَنْ تُوُفِّيَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ فَعَلَيَّ قَضَاؤُهُ، وَمَنْ تَرَكَ مَالًا فَهُوَ لِوَرَثَتِهِ**»[1]. قال النووي رحمه الله: إِنَّمَا كَانَ يَتْرُكُ

(١) أخرجه مسلم برقم (١٦١٩).

الصَّلَاةَ عَلَيْهِ لِيُحَرِّضَ النَّاسَ عَلَى قَضَاءِ الدَّيْنِ فِي حَيَاتِهِمْ وَالتَّوَصُّلِ إِلَى الْبَرَاءَةِ مِنْهَا لِئَلَّا تَفُوتَهُمْ صَلَاةُ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ عَادَ يُصَلِّي عَلَيْهِمْ وَيَقْضِي دَيْنَ مَنْ لَمْ يُخَلِّفْ وَفَاءً[١].

* * * *

(١) شرح النووي على مسلم (١١/٦٠).

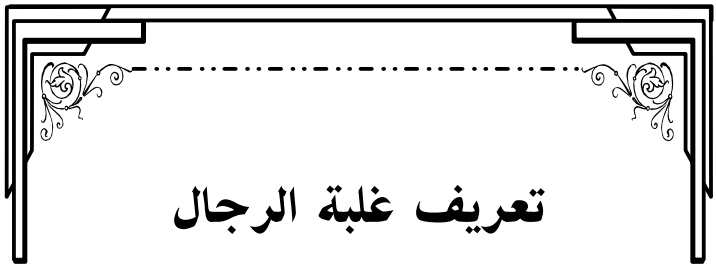

تعريف غلبة الرجال

المراد بالرجال هنا: الظالمون منهم، **وغلبة الرجال**: أي تسلط الظلمة على الإنسان، وإيذاؤهم له في نفسه أو أهله أو ماله، وهو عاجز عن دفع ظلمهم وأذاهم، فيُذلّونه ويقهرونه وهو مستسلم لهم ومغلوب على أمره.

الأثر السلبي لغلبة الرجال

إذا تعرّض الإنسان للقهر والظلم وهو غير قادر على الدفاع عن نفسه، فإنّ هذا يُحطّم عنفوانه وكبرياءه، ويورّث فيه المهانة والمذلّة والانكسار. فإذا توالى الظلم عليه وهو مغلوب على أمره، فعندها تنكسر شوكتُه. والمراد بانكسار شوكته: أن يستسلم لظلم الظلمة حتى لا تبقى عنده عزيمة أو إرادة لدفع ظلمهم، فمهْما وقع من ظلم عليه أو على أهله وجيرانه أو على دينه وأمّته، فهو مستسلم له وخاضع للظلمة ولا يفكر في مقاومتهم أو دفع ظلمهم أدنى تفكير.

وهناك قصة جميلة رواها أهل الأدب والشعر، وهي تعبّر بصورة جليّة عن هذا المعنى، وهي قصة

عنترة بن شدّاد[١].

فعنترة ولد قبل الإسلام، وكان أبوه رجلًا حرًّا من أسياد قومه، واسمُه شدّاد. وأمّا أمّه فلم تكن حرّة بل كانت أَمَة حبشيّة تدعى زبيبة. وكان من عادة العرب في الجاهليّة، أنّه إذا ولد الولد بين أبٍ حرٍّ وأمٍّ مستعبدة أن يصير الولد عبدًا تبعًا لأمّه، كما أنّه لا يُنسب لأبيه وإنّما يُنسب لأمّه. فلمّا وُلد عنترة بين أبٍ حُرّ وأمّ مستعبدة صار عبدًا، ونسبه أبوه لأمّه ولم ينسبه لنفسه ازدراءً له وتحقيرًا لشأنه، فكان يُدعى عنترة بن زَبيبة.

وفي يوم من الأيام أغارت بعض القبائل العربية على قبيلة بني عبْس، وهم قوم عنترة، فأصابوا من مواشيهم وفرّوا. فلما لحق بهم رجال بني عبْس لاستنقاذ مواشيهم، قال شدّاد لابنه عنترة: كُرّ يا عنترة، أي: احمل السلاح مع رجال بني عبس والحَق بالقوم الغزاة فقاتلهم.

(١) انظر: «أشعار الشعراء الستة الجاهليين» لأبي الحجاج الأعلم (ص: ٧٦)، و«خزانة الأدب» و«لبّ لباب لسان العرب» للبغدادي (١٢٨/١).

فقال له عنترة: «العبدُ لا يُحسن الكرّ وإنّما يُحسن الحِلاب والصَرّ». أي: حمل السلاح والدفاع عن الحِمى، هذا من شأن الرجال الأحرار، وأمّا أنا فقد ازدريتني وجعلتني عبدًا، وشأن العبد يقتصر على حلب المواشي وربط ضُروعها ونحو ذلك. ففهم أبوه مراده، إذ إنّ عنترة مستاء من جعله عبدًا خاضعًا ذليلًا ليس له همّ إلا في الخدمة والتنظيف، وهو مَنْ هو في قوّته وعنفوانه وشدة بأسه. فقال له أبوه: كرّ وأنت حرّ.

فكرّ عنترة وقاتل قتالًا شديدًا واستنقذ ما في أيدي القوم من غنيمة، ففرح به أبوه واعتزّ به ونسبه إليه وجعله حرًّا، فصار يُدعى من يومها عنترة بن شدّاد.

فهذه القصة لها مغزى جميل، وهو: أنك إذا أذللت إنسانًا وأهَنْته وحطّمت عنفوانه وكبرياءه، فلا تطلب منه بعد ذلك أن يقف مواقف العزّة والبطولة والشرف، لأنك كسرت شوكته وحطّمت معنوياته.

لذلك حرص الإسلام على تربية المسلم على معاني العزّة والإباء، فأمره أن يدفع الظلم عن نفسه

ولا يستسلم لإرادة الظالم. روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي؟ قَالَ: «**فَلَا تُعْطِهِ مَالَكَ**». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي؟ قَالَ: «**قَاتِلْهُ**». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي؟ قَالَ: «**فَأَنْتَ شَهِيدٌ**». قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ؟ قَالَ: «**هُوَ فِي النَّارِ**»(١).

كما نهى الإسلام الحاكم عن إذلال الناس وتحطيم الروح المعنوية فيهم، حتى لا تنكسر شوكتهم وتضعُف عزيمتهم. روى أحمد عَنْ أَبِي فِرَاسٍ، قَالَ: «خَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّا إِنَّمَا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إِذْ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ، وَإِذْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ، وَإِذْ يُنْبِئُنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ، أَلَا وَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدِ انْطَلَقَ وَقَدِ انْقَطَعَ الْوَحْيُ، وَإِنَّمَا نَعْرِفُكُمْ بِمَا نَقُولُ لَكُمْ، مَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ خَيْرًا ظَنَنَّا بِهِ خَيْرًا وَأَحْبَبْنَاهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ لَنَا شَرًّا ظَنَنَّا بِهِ شَرًّا وَأَبْغَضْنَاهُ عَلَيْهِ، سَرَائِرُكُمْ

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٢٥).

بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ، أَلا إِنَّهُ قَدْ أَتَى عَلَيَّ حِينٌ وَأَنَا أَحْسِبُ أَنَّ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ يُرِيدُ اللَّهَ وَمَا عِنْدَهُ، فَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ بِأخَرَة، أَلا إِنَّ رِجَالًا قَدْ قَرَؤوهُ يُرِيدُونَ بِهِ مَا عِنْدَ النَّاسِ، فَأَرِيدُوا اللَّهَ بِقِرَاءَتِكُمْ، وَأَرِيدُوهُ بِأَعْمَالِكُمْ. أَلا إِنِّي وَاللَّهِ مَا أُرْسِلُ عُمَّالِي إِلَيْكُمْ لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ(١)، وَلا لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ، وَلَكِنْ أُرْسِلُهُمْ إِلَيْكُمْ لِيُعَلِّمُوكُمْ دِينَكُمْ وَسُنَّتَكُمْ، فَمَنْ فُعِلَ بِهِ شَيْءٌ سِوَى ذَلِكَ فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِذَنْ لَأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ. فَوَثَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ ﷺ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَوَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى رَعِيَّةٍ، فَأَدَّبَ بَعْضَ رَعِيَّتِهِ، أَئِنَّكَ لَمُقْتَصُّهُ مِنْهُ؟ قَالَ: إِي وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ، إِذًا لَأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ، أَنّى لا أُقِصَّنَّهُ مِنْهُ وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُقِصُّ مِنْ نَفْسِهِ. أَلا لَا تَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ فَتُذِلُّوهُمْ، ولا تُجَمِّرُوهُم(٢) فَتَفْتِنُوهُمْ، وَلا تَمْنَعُوهُمْ حُقُوقَهُمْ

(١) **الأبشار**: جمع بشرة، وهي ظاهر الجلد.

(٢) قال السندي: من التجمير، وتجمير الجيش: جمعهم في الثغور، وحَبْسهم عن العَوْد إلى أهليهم.

فَتُكَفِّرُوهُمْ، وَلا تُنْزِلُوهُمُ الْغِيَاض فَتُضَيِّعُوهُمْ[١]»[٢].

قال ابن خلدون رَحِمَهُ اللَّهُ: ليس كلّ أحد مالك أمر نفسه، إذ الرّؤساء والأمراء المالكون لأمر النّاس قليل بالنّسبة إلى غيرهم، فمن الغالب أن يكون الإنسان في مَلَكة غيره ولا بدّ. فإن كانت المَلَكة رفيقة وعادلة لا يعاني منها حكم ولا منع وصدّ، كان النّاس من تحت يدها مُدِلّين بما في أنفسهم من شجاعة أو جبن، واثقين بعدم الوازع حتّى صار لهم الإدلال جبلّة لا يعرفون سواها. وأمّا إذا كانت المَلَكة وأحكامها بالقهر والسّطوة والإخافة فتكسر حينئذ من سوْرة بأسهم وتذهب المَنَعة عنهم، لما يكون من التّكاسل في النّفوس المضطهدة كما نبيّنه. وقد نهى عمر سعدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن مثلها، لمّا أخذ زُهرة بن حوبة سَلَب الجالنوس[٣]، وكانت قيمته

(١) **الغِياض**: جمع غَيْضة، وهي: الشجر الملتفُّ، قيل: لأنهم إذا نزلوها تفرّقوا فيها، فتمكّن منهم العدوُّ.

(٢) أخرجه أحمد برقم (٢٨٦)، وحسّن إسناده شاكر في تحقيقه للمسند (٢٨٦/١).

(٣) أي: أن زُهرة بن حوبة قتل الجالنوس ثم أخذ ما عليه من ثياب وسلاح وحلي.

خمسة وسبعين ألفًا من الذّهب، وكان اتّبع الجالنوس يوم القادسيّة فقتله وأخذ سَلَبه، فانتزعه منه سعد وقال له: هلّا انتظرت في اتّباعه إذني، وكتب إلى عمر يستأذنه.

فكتب إليه عمر: تَعمَد إلى مِثل زُهرة وقد صَلِي بما صَلِي به[١]، وبقي عليك ما بقي من حربك، وتكسِر فُوقَه[٢]، وتُفسد قلبه، وأمضى له عمر سَلَبه. وأمّا إذا كانت الأحكام بالعقاب، فمُذهبة للبأس بالكلّيّة، لأنّ وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يُكسبه المَذلّة الّتي تكسِر من سوْرة بأسه[٣] بلا شكّ»[٤].

وهكذا يتجلى لنا الأثر السلبي لغلبة الرجال، إذ يصبح المغلوب مكسور الشوكة وفاقد العزيمة، فيستسلم للظلم الواقع عليه ولا يبادر إلى دفعه أبدًا.

---

(١) أي: قاسى شدّة القتال وكابده.

(٢) **الفوقُ**: موضع الوتَر من السهم، وتكسر فُوقه أي: تكسر عنفوانه وعزمه.

(٣) أي: حدّة بأسه.

(٤) تاريخ ابن خلدون (١/١٥٧).

وقد مرّت الأمّة الإسلامية في فترة من تاريخها بهذه الحالة، وذلك لمّا انهزم المسلمون نفسيًّا أمام التتار وصاروا يستسلمون للذبح على أيدي التتار كما تستسلم النعاج لذابحيها.

قال ابن السبكي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتمكّنت التتار من الْمُسلمين وَألقى اللَّه الرعب فِي قُلُوب الْمُسلمين مِنْهُم، بِحَيْثُ كَانَ الْكَافِر يَجوز عَلَى الْمائَة من الْمُسلمين فيقتلهم وَاحِدًا وَاحِدًا وَلَا يقدِر أحد مِنْهُم يَقُول لَهُ كلمة، وأعناقهم تقع عَلَى الأَرْض وَاحِدًا بعد وَاحِد، حَتَّى إِن امْرَأَة مِنْهُم كَانَت عَلَى زِيّ الرِّجَال قتلت عددًا عَظِيمًا من الرِّجَال، وأسَرَت جمَاعَة وَلم يَعلمُوا أَنَّهَا امْرَأَة حَتَّى علم بهَا شخص من أُسَارَى الْمُسلمين فَقَتلهَا رَحمَه اللَّه»[1].

(١) طبقات الشافعية الكبرى (١/٣٤٢).

التخلص من غلبة الرجال

غلبة الرجال لها أثر شنيع في حياة الفرد وفي حياة الجماعة، فمن ابتُلي بها فقد خسر معنى وجوده وحُرِم طعم السعادة في حياته. لذلك كان النبي ﷺ يستعيذ باللَّه منها، لأنّها من أكبر الطامّات ومنغّصات العيْش. فالواجب على المسلم ابتداءً أن يأخذ بأسباب الوِقاية من هذه الطامّة، ومنها:

التوكّل على اللَّه في أموره كلها، فمن صدق في توكله كفاه اللَّه تعالى جميع همومه. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾[1]. قال شيخي أبو بكر الجزائري رَحِمَهُ اللَّهُ: «من يتوكل على اللَّه تعالى في

(١) الطلاق: ٣.

أمره فلا يُفرِّط في أمر اللَّه، ولا يُضيِّع حقوقه، فإن اللَّه تعالى يكفيه ما يهمّه من أمر دينه ودنياه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ أي: منفّذ أمره في عباده لا يعجزونه أبدًا، وقد جعل لكل شيء قدْرًا أي مقدارًا وزمانًا ومكانًا فلا يتقدّم ولا يتأخّر، ولا يزيد ولا ينقص، فمن رضي فله الرضا، ومن سخِط فله السخط، ولا يقع في ملك اللَّه إلا ما يريد اللَّه»[1].

ومنها: الأخذ بأسباب القوة وعدم الاستسلام للظلم.

ومنها: أن يدرك الإنسان أنّه إذا خُيّر بين حياة الذُلّ والمَهانة والاستعباد، وبين أن يدفع ذلك عنه بكلّ ما أوتي من قوّة ولو أدّى إلى موته، فالموتُ بعزّة وشرَف خير له من حياة الذل والاستعباد. لذلك مدح النبي ﷺ من دافع عن عِرضه وماله ولم يستسلم لغاصبيه ولو أدّى ذلك إلى موته، وجعل النبي ﷺ ميتته عندها في درجة الشهادة في سبيل اللَّه.

(١) أيسر التفاسير (٥/٣٧٥).

روى الترمذي عَنْ سَعِيد بْنِ زَيْدٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ**»(١).

وأسباب الوقاية هذه كما تصلح في حقّ الفرد، كذلك تصلح في حقّ الأمة.

وأكبر خطر على الأمّة حين تُبتلى بغلبة أعدائها هو ما يروّجه بعض من ينتسبون إلى العلم الشرعي من الفتاوى ومنها:

١ ـ تحريم استعمال القوّة للتحرّر من تسلّط الظالمين بحجّة حماية الدماء من الإراقة وصيانة الفروج من الاستباحة.

٢ ـ تحريم الخروج على الحكام المستبدّين بحجة وجوب طاعة أولياء الأمور مهما ظلموا.

٣ ـ توجيه الناس إلى الاهتمام بخاصّة

(١) أخرجه الترمذي برقم (١٤٢١)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، كما صحّحه الألباني في «صحيح وضعيف سنن الترمذي» (٣/٤٢١).

أنفسهم، فيدعونهم إلى الاهتمام بإصلاح أنفسهم وإصلاح أهاليهم، وعدم الاهتمام بشأن الحكام الظالمين، بحجّة أن إصلاح النفوس كفيل بمجرده بتغيير أحوال الحكام.

وهذه الفتاوى لو أخذ بها أهل الإسلام في زمن التتار لما بقي من المسلمين أحد ولاستأصلهم التتار عن بكرة أبيهم، إلا أن اللَّه تعالى قيّض لذلك الجيل قادة من العلماء أمثال سلطان العلماء العزّ بن عبد السلام وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما اللَّه تعالى، وقادة من الأمراء أمثال المظفّر قطز رحمه الله تعالى، فشحذوا همَم الناس وجرّؤوهم على التتار حتى هزموهم بإذن اللَّه، ووقى اللَّه تعالى أهل الأرض من شرورهم.

الخاتمة

وفي الختام، نسأل اللَّه تعالى أن يجنّبنا الهمّ والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدَّين وغلبة الرجال، وأن يمنّ علينا بسعادة الداريْن إنه سميع مجيب.

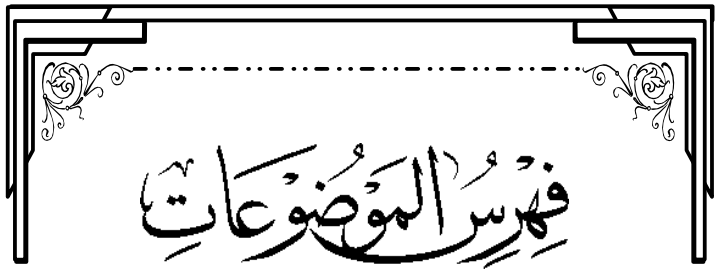

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
متن الحديث	٩
شرح الحديث	١٠
تعريف الهمّ والحزن	١٢
التخلص من الهمّ والحزن	١٤
الأمر الأول: ترسيخ عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر	١٥
أثر الإيمان بالقضاء والقدر في تخفيف الهمّ	١٥
أثر الإيمان بالقضاء والقدر في تخفيف الحزن	١٧
الأمر الثاني: الاستعانة باللَّه تعالى	٢٠
تعريف العجز والكسل	٢٧
ذم العجز والكسل	٢٨
الحض على الأخذ بالأسباب	٣١
تعريف البخل والجبن	٣٥

الموضوع	الصفحة
ذم البخل والجبن	٣٦
سبب الاستعاذة منهما	٣٨
مضار البخل على المجتمع	٣٨
مضار الجبن على المجتمع	٤٢
مضار البخل والجبن على الأمة	٤٤
تعريف ضلع الدَّيْن	٤٩
تعظيم أمر الدَّيْن	٥٠
لماذا عظم الإسلام أمر الدَّيْن	٥٢
التخلص من الدَّيْن	٥٤
تحمل النبي ﷺ ديون الناس	٥٧
تعريف غلبة الرجال	٥٩
الأثر السلبي لغلبة الرجال	٦٠
التخلص من غلبة الرجال	٦٨
الخاتمة	٧٣
الفهرس	٧٥